صور الطبيعة في شعر السياب
قصيدة \ أنشودة المطر \ أنموذجاً

م.د. سلام حديد رسن
كلية الاداب / جامعة البصرة

الملخـص

تشغل صور الطبيعة في شعر السياب حيزاً كبيراً منه ، ذلك أن السياب في مراحل تجاربه الحياتية أو الشعرية المختلفة من: ذاتية ، ورومانسية ، وواقعية ، كان يلجأ في شعره- وباستمرار- إلى توظيف صور الطبيعة المتنوعة : الحية منها والصامتة، لتوصيل آلامه وعواطفه الإنسانية إلى المتلقي من جهة، وكان يعرض أفكاره ومضامين قصائده عن طريقها من جهة أخرى ، ويتم كل ذلك بأساليب فنية متنوعة ومبدعة ، امتزجت فيها ذاته الشعرية بصور الطبيعة في علاقة موضوعية تجاوزت الوصف الحسي بكثير إلى ما هو غير حسي .

فضلا عن هذا ، استغل السياب كل ما هو رمزي وأسطوري توحي به صور الطبيعة المتنوعة ، وضمنه في شعره عبر صور فنية مستحدثة تم توظيفها داخل القصيدة ببراعة ، مما جعله من كبار الشعراء العرب في هذا المجال .

Abstract

The images of nature occupied a large Al-Sayyab poetry, because he employs a various images of nature in his numerous stages of his life. Such as romantic, reality and selfness and he continuously used the different images of nature such as silent and living in order to reach his poetry to the nation and his human passions to meeting.

In addition, he showed his ideas and potential meaning of his poems, As well as, all these devices were done by using various literary styles. Fur ther more Al – Sayyab used all that is symbolic and mythical in his various images of nature that he included in his poetry by means of his artistic figures aesthetically in his poems That is why he has become one of greet Arab poets in this field

التمهيد :

أولا- الصورة :

يشير مفهوم (الصورة) في الاستعمال الأدبي ، ما تولّده اللغة في الذهن من صور، بحيث تحيل الكلمات أو العبارات ،أما إلى تجربة ما ، أو إلى انطباع حسي حسب، على أن يخلق ذلك الانطباع الذهني أو التشابه المتصور الذي تستدعيه (الكلمات أو العبارات) صورا لها من الحيوية ، مثل ما للحضور الواقعي للأشياء والأفكار[١]. وحتى يحصل التأثير المطلوب لهذه الصور في المتلقي لها ، يجب أن يتم تشكيلها بطريقة إيحائية .

وبما أن الشعر، فن استخدام الصورة الموحية والمعبرة، فكثيرا ما يلجأ الشاعر إلى ((التعبير بالصورة , باعتبارها مظهرا من مظاهر الفاعلية الخلاقة بين اللغة والفكر، ووسيلة للتحديد والكشف))[٢]. وهذا يعني: أن (الصورة) ،هي الوسيط الأساس الذي يستكشف به المعنى . ف ((الصورة , بنضارتها وتكثيفها ، وقوة الاستدعاء والإيحاء فيها))[٣]. تعد وسيلة تعبيرية جمالية تساعدنا في حركتنا، نحو اكتشاف المعنى ، وإدراكه بواسطة الحواس .

ولقدرة الصورة الفائقة على نقل الأحاسيس الإنسانية وتجاربها - ولاسيما في فن الشعر- صار التعبير بالصور غاية الفن الشعري، و((الشعراء الآن أصبحوا بحاجة إلى الصورة كي يعبروا من خلالها عن حالة التعقيد القصوى لمشاعرهم))[٤].

بلا ريب، يفقد النص الشعري تعبيريته وجماليته بدون الصورة، لأن((الصورة، وحدها تكسب العمل جمالا))[٥] ،غير أن هذه الجمالية لا تكتمل داخل النص ، إلاّ بالتعاون مع الوسائل التعبيرية الأخرى - كاللغة والإيقاع وغيرهما - فالصورة ، ليست منفصلة عن هذه الوسائل .

ثانيا- الشاعر والطبيعة :

اللقاء بين فن الشعر والطبيعة ، لقاء قديم جدا ، قدم الإنسان ووجوده على هذه الأرض، فهي الأم بالنسبة للإنسان، والحضن الدافئ له، ومكان تأمله وصراع أفكاره، ومنبع كثير من إبداعاته ، هي : الحياة والخصب ، والهدوء والسكينة، حينا،

والموت والجدب، والدمار والتمرد، حينا آخر. تتصارع فيها هذه المتناقضات وتتجاذب ، كما هو الحال في نفس الإنسان تماما . فالعلاقة بين الطبيعة والنفس الإنسانية ، علاقة تشابه كبيرة .

وهذا، ما يفسر لنا حرص الإنسان- الشاعر أو غيره - في حياته وفنه، على هذه العلاقة والإفادة منها ، فطالما أسرت ((الطبيعة , في كل زمان ومكان، الإنسان ومشاعره ، فتحاصر عواطفه ... والشاعر بلا طبيعة مثله كمثل من يفتقد الضوء، فيتلمس من دون أن يرى ... إذ أنه يجد نفسه محاصرا بقوة خفية تسعى به إلى نشوة احتضان الطبيعة أو الامتزاج بها)) [٦] .

لقد اختلفت العلاقة بين الشعراء والطبيعة في العصر الحديث ،وصارت علاقة موضوعية ممزوجة بالذات , فهم لا يعنيهم منها الوصف الحسي ، ((وإنما يقتربون منها اقتراب تماس حدسي ، يقود إلى فهم واستنتاج وجدانيين ، للتعبير عما يختلج في نفوسهم من حالات نفسية ، ولا يهضمونها إلا من خلال تمثلها في وجدانهم ... فهم بذلك يتحدون معها ويحيون في داخلها ، وبذلك يكشفون خبايا النفس الإنسانية لا الطبيعة)) [٧] .

الشاعر ، ابن بيئته - الطبيعة - يتأثر بها , وتؤثر به ، وهكذا هو حال العلاقة بينهما , التي تصل - أحيانا - إلى درجة الشغف ، فالطبيعة بمظاهرها المختلفة، تفتن الشاعر وتنبه خياله ، لأنه جزء منها ، وشعره صورة عن نفسه ، وصورة عنها، فتتردد في شعره بوعي منه أو من غير وعي .

وعلاقة السياب بالطبيعة تظهر في شكلين : الأول ، علاقة خاصة بالبيئة التي عاش بها ، ونقصد قريته أو مدينته (أبي الخصيب) ، وكل ما في هذا المكان / الريف من مظاهر الطبيعة الحية أو الجامدة ، والشكل الثاني : علاقة عامة بمظاهر الطبيعة وعوالمها في الكون والأفق الواسع .

السياب ، ابن بيئته الريفية حيث غابات النخيل والأشجار والأنهار والطيور والحيوانات ... إلخ , وشكّل هذا التنوع في الطبيعة الصامتة والحية لعين السياب ومخيلته آلاف الصور في عشرات القصائد ، وعلاقة السياب بالطبيعة (سواء المكان/ القرية أو عوالمه) علاقة غير اعتيادية ، على المستوى الشخصي ، أو

الشعري، حيث ولد السياب في قرية ريفية وعاش معظم حياته يتحرك في إطار ما هو طبيعي ونقي فيها ، وكل ما في حياته هذه، هو الآخر قد انعكس في شعره وصار صورة عنه . حينما يتكلم عن المرأة الحبيبة أو الزوجة ، تحضر صور الطبيعة بمختلف تشكيلاتها واقعاً ورمزاً ، وهكذا الحال بالنسبة إلى موضوعات أخرى مثل: الوطن، الإنسان، النفس ، وغيرها .

تشكيل صور الطبيعة في شعر السياب ، لم يقصد به الطبيعة لذاتها في مسمياتها وعوالمها الحية أو الجامدة في أحيان كثيرة ، وإنما تجاوز تلك الصفة إلى ماهو أبعد من ذلك بكثير ، فكانت تلك الصور - في حقيقتها - معبرا إلى كل ماهو نفسي أو رمزي في تجربته الحياتية . فالماء ، والنخل ، والبحر ، والنهر، والمطر، والبرق والرعد والريح ... إلخ , كلها تحولت إلى رموز في شعره ، بل أن كثيرا من أسماء الطبيعة وأماكنها وأنهارها في مدينته ، قد تحولت إلى رموز سياسية أو وطنية أو إنسانية ، مثل نهر بويب ، وجيكور، وغيرهما .

ثالثا- النص :

(أنشودة المطر)

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر،
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر.
عيناك حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الأضواء... كالأقمار في نهر
يرجه المجذاف وهنا ساعة السحر،
كأنما تنبض في غوريهما ، النجوم...
وتغرقان في ضباب من أسى شفيف
كالبحر سرح اليدين فوقه المساء ،
دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف،
والموت ، والميلاد ، والظلام , والضياء،
فتستفيق ملء روحي ، رعشة البكاء

ونشوة وحشية تعانق السماء
كنشوة الطفل إذا خاف من القمر !
كأن أقواس السحاب تشرب الغيوم
وقطرة فقطرة تذوب في المطر...
وكركر الأطفال في عرائش الكروم ،
ودغدغت صمت العصافير على الشجر
أنشودة المطر...
مطر...
مطر...
مطر...
تثاءب المساء ، والغيوم ما تزال
تسح ما تسح من دموعها الثقال .
كأن طفلا بات يهذي قبل أن ينام :
بأن أمه – التي أفاق منذ عام
فلم يجدها ، ثم حين لج في السؤال
قالوا له : ((بعد غد تعود ...)) -
لا بد أن تعود
وإن تهامس الرفاق أنها هناك
في جانب التل تنام نومة اللحود
تسف من ترابها وتشرب المطر،
كأن صيادا حزينا يجمع الشباك
ويلعن المياه والقدر
وينثر الغناء حيث يأفل القمر .
مطر...
مطر...

أتعلمين أي حزن يبعث المطر؟
وكيف تشج المزاريب إذا انهمر؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟
بلا انتهاء – كالدم المراق ، كالجياع ،
كالحب , كالأطفال , كالموتى – هو المطر!
ومقلتاك بي تطيفان مع المطر
وعبر أمواج الخليج تمسح البروق
سواحل العراق بالنجوم والمحار،
كأنها تهم بالشروق
فيسحب الليل عليها من دم دثار .
أصيح بالخليج : ((يا خليج
يا واهب اللؤلؤ ، والمحار ، والردى!))
فيرجع الصدى
كأنه النشيج :
((يا خليج
يا واهب المحار والردى ...))
أكاد اسمع العراق يذخر الرعود
ويخزن البروق في السهول والجبال،
حتى إذا ما فض عنها ختمها الرجال
لم تترك الرياح من ثمود
في الواد من أثر .
أكاد أسمع النخيل يشرب المطر
وأسمع القرى تئن ، والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع ،
عواصف الخليج ، والرعود ، منشدين :
((مطر ...

مطر ...
مطر ...
وفي العراق جوع
وينثر الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشوان والحجر
رحى تدور في الحقول ... حولها بشر
مطر ...
مطر ...
مطر ...
وكم ذرفنا ليلة الرحيل ، من دموع
ثم اعتللنا خوف أن نلام – بالمطر...
مطر...
مطر...
ومنذ أن كنا صغارا ، كانت السماء
تغيم في الشتاء
ويهطل المطر،
وكل عام – حين يعشب الثرى – نجوع
ما مر عام والعراق ليس فيه جوع .
مطر ...
مطر...
مطر...
في كل قطرة من المطر
حمراء أو صفراء من أجنة الزهر .
وكل دمعة من الجياع والعراة

وكل قطرة تراق من دم العبيد .
فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد
أو حلمة تتوردت على فم الوليد
في عالم الغد الفتي ، واهب الحياة !
مطر...
مطر...
مطر...
سيعشب العراق بالمطر...)) .
أصيح بالخليج : ((يا خليج..
يا واهب اللؤلؤ ، والمحار ، والردى !))
فيرجع الصدى كأنه النشيج :
((يا خليج
يا واهب المحار والردى .))
وينثر الخليج من هباته الكثار،
على الرمال ، رغوة الأجاج ، والمحار
وما تبقى من عظام بائس غريق
من المهاجرين ظل يشرب الردى
من لجة الخليج والقرار،
وفي العراق ألف أفعى تشرب الرحيق
من زهرة يربها الفرات بالندى .
وأسمع الصدى
يرن في الخليج
((مطر..
مطر ..
مطر..
في كل قطرة من المطر

حمراء أو صفراء من أجنة الزهر .
وكل دمعة من الجياع والعراة
وكل قطرة تراق من دم العبيد
فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد
أو حلمة تتوردت على فم الوليد
في عالم الغد الفتي ، واهب الحياة .))
ويهطل المطر .. [٨]

رابعا- القصيدة ورؤيا الشاعر:

كتب السياب هذه القصيدة خارج العراق ، وهو هارب من رجال السلطة في بغداد عام ١٩٥٢م ، ويرى النقاد أن قصيدة ((أنشودة المطر)) ، تعد تحولا نوعيا في منجز السياب الشعري ، وفي الشعر العربي المعاصر بأسره ، وأكثر النقاد من مدح هذه القصيدة والإشادة بشاعرية السياب القوية فيها ، ذلك أنها تعد بداية الحداثة الحقيقية في الشعر العربي من حيث المضمون والصورة والبناء والشكل. وقد وجد السياب في ((أنشودة المطر)) ذاته ، واكتشف الأسطورة من حيث هي رمز وبناء. وهي قصيدة عبر فيها تعبيرا حميما وصادقا عن رؤيا شعرية ربطت ووازت بين حتمية حلول الخصب بعد الجفاف في الطبيعة ، وحتمية الانبعاث الحضاري بعد الانحطاط والموت [٩] .

إذن ، قصيدة : **((**أنشودة المطر))، التي أطلق الشاعر اسمها على أهم دواوينه، من نتاج رحلة الغربة الأولى عن الوطن ، وهي أحدى قصائده المهمة، التي تمثل انتماءه الحار لقضية وطنه ، فضلا عن هذا ، تعد نموذجاً متميزاً لما انتهت إليه حركات التجديد في الشعر العربي الحديث من نضج وتطور .

ذلك، أن ثمة نضجا فنيا – شعريا حقيقيا نشهده في هذه القصيدة ، حيث اختفاء الذات الرومانسية للشاعر واقترابه من الموضوعية في مواقفه ، وفي صياغة هذه المواقف صياغة فنية . واتسعت دائرة اهتماماته الشعرية لتشمل كل القضايا المؤرقة لذاته المبدعة ، التي لم تعد منفصلة عن ذات الآخرين ، وانعكست ثقافة الشاعر

انعكاسا ناضجا في شعره ، فظهرت آثارها في استغلاله الخصب للأسطورة [١٠]. حيث استطاع السياب في هذه القصيدة وببراعة يشهد لها نقاد الأدب، أن يستلهم الرموز المختلفة لأسطورة (الموت والانبعاث)، واستعان ببنائها الطقسي القائم على تكرار شعائر الخصب واستسقاء المطر للتغلب على الجدب والموت ، والمرتكز إلى دورة الحياة من الولادة إلى الموت ثم إلى الانبعاث ، متأثرا بالشاعر الإنجليزي ت. س. اليوت(١٨٨٨-١٩٦٥م)، ولاسيما في قصيدته الشهيرة:((الأرض اليباب))[١١] .

يتشكل نص (أنشودة المطر) من مشهدين ، الأول : مشهد (المرأة أو الحبيبة)، وهو مشهد استهلالي مكثف تصويريا ، والثاني: مشهد (الوطن والغربة) ، وقد أخذ حيزاً كبيراً من بناء النص ، فالمشهد الأول يبدأ من قوله : (عيناك غابتا نخيل ساعة السحر) ، وينتهي إلى قوله : (ومقلتاك بي تطيفان مع المطر) ، أما المشهد الثاني من النص، فيبدأ من قوله: (وعبر أمواج الخليج تمسح البروق ، سواحل العراق بالنجوم والمحار)، ويختمها بقوله : (ويهطل المطر ..) . وكل مشهد من المشهدين - أيضا - يتكون من مشاهد جزئية أو لوحات صغيرة ، يجمعهما مشهد واحد كبير، هو عنوان القصيدة ذاتها ، حيث أن جو القصيدة - عموما - تفاؤل بالمستقبل، بالنسبة للشاعر ولوطنه المغترب عنه قسرا ، ((ذلك أن لفظة واحدة هي المطر استطاعت أن تغوص إلى سر الوجود ، كما استطاعت أن تربط خيوطا مختلفة ، وأن توحد الطاقات في حبل قوي ،هو حبل الأمل))[١٢] .

((أنشودة المطر**))** ، قصيدة رومانسية ، فيها من الحب والسياسة وإن كانت مغلفة بإطارمن صور الطبيعة المحسوسة. ((فالقصيدة، عموما ذات نزعة رومانسية، ومحورها بحد ذاته يدور حول الامتزاج بين الطبيعة والإنسان وكذلك الصراع بينهما))[١٣] . وهذا الامتزاج والصراع بين الطبيعة والإنسان في الحياة - بلا ريب - أباحته مخيلة الشاعر الخصبة , فأنتجت نصا مبدعا وغاية في الروعة .

وسوف ينصب اهتمامنا في هذا البحث على حضور صور الطبيعة المحسوسة داخل النص ، وما توحي به - أيضا- من دلالات ما وراء حسية ، فهي قد شغلت الحيز الأكبر من بناء الصور الشعرية في هذه القصيدة ،((فالصور المحسوسة هي أداة الشعر ، وليست الأفكار المجردة ، لأن الصورة يمكن أن تحمل إيحاءات كثيرة

وعديد من الدلالات والمعاني ، بينما لا تحمل الكلمة المجردة إلا ذاتها وتخاطب منطق الإنسان وفكره . وتتوجه الصورة الشعرية إلى حواس القارئ وعاطفته فيحس أنه يشارك الشاعر في إبداعه ويساهم في اكتشاف الصور معه)) [١٤] .

وقد أشار د. محسن أطيمش إلى أن هذا الحضور القوي والكثير لصور الطبيعة في شعر السياب أو اللقاء بينهما , ((لم يكن يهدف إلى الوصف المجرد أي أنه ليس ارتماء رومانسيا في أحضان الطبيعة ، ولا هو زينة تصويرية تمنح القصيدة جمالا، وإنما يتحول ((الواقع)) فيها إلى الفعل الشعري نفسه ، ويصير هو موضوع القصيدة ، وهو إحساسات الشاعر الممزقة ، وأحزانه)) [١٥] .

وهذا يعني أن وجود صور الطبيعة في شعر السياب ، لم يكن لحاجة فنية اقتضتها بنية القصيدة فحسب ، وإنما فرضتها الحالة النفسية للشاعر والمعاناة التي يعيشها مع همومه الشخصية والعاطفية والإنسانية، ولذلك ، جاءت هذه الصور ممتزجة مع ذات الشاعر وإحساساته ، مع الغربة والمعاناة ، والمرض والشفاء، والحب والتعاسة ، والفقر والمعاناة ، ... إلخ . لقد أحسن السياب استغلال ما في صور الطبيعة من إيحاءات كثيرة ، ووظفها في نصوص شعرية عديدة ومتميزة بشهادة النقاد - ومنها نص (أُنشودة المطر) - وتعاون كل من مخيلته الشعرية الخصبة وثقافته الواسعة في تقديم نصوص هي قمة في الأداء الشعري .

خامسا- البناء الفني في القصيدة :

١- الاستهلال :

للاستهلال أو البداية أهمية كبرى في النص الأدبي، فهو مفتاح النص وواجهته الأمامية ، ويعطي الصورة الأولى لنجاح النص أو فشله، ولذلك، يحرص كل أديب أو شاعر على أن يتضمن استهلاله أبعادا فكرية خاصة به أو تقنيات فنية جديدة ، يضفي الاستهلال من خلالها لمسة جمالية مميزة على النص كله .

يقول الناقد ياسين النصير: ((والاستهلال عندي ذو بعد فلسفي شامل، فهو المبتدأ لكل شئ ، وما خبره إلا العمل نفسه . وقد لا نكون مغالين إذا ما تصورنا أن أي عمل لا يبتدئ ببداية جيدة لا يصبح عملا جيدا)) [١٦] .

وكثيرا، ما يكون الاستهلال في النص الأدبي ، هو الخيط الذي يشدنا إلى أسرار العمل الخفية فيه ، ويدفعنا باستمرار إلى متابعة القراءة بشغف وحماس كبيرين. ولذلك ، لا يمكن دراسة الاستهلال في أي نص ، بمعزل عن محتوى هذا النص وبنائه .ذلك أن لوحة الاستهلال في أية قصيدة - في أحيان كثيرة - قد تشكل مفتاحا رئيساً لبنيتها الشعرية كلها ، وبلا ريب أن الاستهلال في شعرنا المعاصر قد اختلف كثيرا عن الاستهلال في الشعر القديم ، حيث أن الاستهلال في القصيدة الحديثة تبادل المواقع مع خصائص أخرى داخل القصيدة تبعا للتقديم والتأخير ، ولا يخضع الاستهلال هنا لتسلسل الفكرة زمنيا ، وإنما يخضع للحظة الشعورية التي يرى فيها الشاعر الابتداء [١٧] .

وفي ضوء ذلك , ينبغي التعامل مع الاستهلال على أنه وحدة بنائية متكاملة، ولكنها غير منفصلة عن السياق العام للقصيدة .

لنقرأ استهلال قصيدة:**((**أنشودة المطر**))** ، المتعدد الصور والمجازات، وعوالم الطبيعة أيضا :

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر،
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر.
عيناك حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الأضواء ... كالأقمار في نهر
يرجه المجذاف وهنا ساعة السحر
كأنما تنبض في غوريهما النجوم ...
وتغرقان في ضباب من أسى شفيف
كالبحر سرح اليدين فوقه المساء ،
دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف ،
والموت , والميلاد ، والظلام ، والضياء ،

بنية هذا المقطع الاستهلالي، أو مقدمة القصيدة تجمع بين : عيني المرأة والطبيعة في صور حسية متراكمة ، ومتضادة أحيان ، وزعها الشاعر في مقدمة القصيدة ، التي يبدأ استهلالها في : عيناك غابتا نخيل ساعة السحر، (المشبه =

عيناك) ، ومنها تتركب مع : (المشبه به = غابتا نخيل) , بنية الصورة التشبيهية الأولى ، فالمتأمل لهذه الصورة , يجد ثمة علاقة تجمع بين العينين وغابتي النخيل، منها ماهو ظاهر حسي بقصد الجمال كاللون أو السعة ، ... أو مخفي ما وراء حسي كالبراءة أو الغموض والحزن ، ... .

أما الصورة الثانية : عيناك : (شرفتان راح ينأى عنهما القمر) ، فهي امتداد للصورة الأولى ومكملة لها بالعطف ، بل هي فيض صوري آخر، فتارة هاتان العينان: غابتا نخيل ساعة السحر! وتارة أخرى :هما شرفتان راح ينأى عنهما القمر! ومن هاتين الصورتين أخذت تتولد صور أخرى ، وصور الطبيعة التي يجمع بينهما: (النور) و (الظلام) ، هنا حاضرة بقوة ، لأن المشهد الاستهلالي كله يتشكل أساسا منها و بها .

ونلحظ أن حذف كل من : (أداة التشبيه) ، و(وجه الشبه) ، من الصورتين الرئيستين ، قد أسهم في إضفاء لمسة بيانية وخيالية على الصورتين معا ، وإبداع الشاعر ترك المجال مفتوحا لمخيلة المتلقي في استنطاق النص لمعرفة وجه الشبه، ولذلك لم يذكره صراحة .

في أي مشروع لبناء النص الشعري وتشكيل منظومته الفنية والفكرية , ينبغي أن يحرص الشاعر أشد الحرص على أن يكون لاستهلاله بنية فنية وأسلوبية خاصة تجعله متميزا عن بقية عناصر النص الأخرى ، وهذه البنية آتية من : أن محتوى النص وأسلوبه ، هما اللذان ولّدا مفردات الاستهلال , فالاستهلال نتاج النص . وأن هذه المفردات تمتد داخل النص كخيوط السدى لتولّد صوراً أو مفردات جديدة منبثقة منها . فالاستهلال بنية خاصة تتناسب وموقعه في أول الكلام أولاً ، وموقعه بوصفه حاملاً لنوى النص كلها ذاتيا [١٨] .

وهذا الذي حصل فعلاً في استهلال نص السياب، على الرغم من أن نص السياب قد شكّل بنيته الاستهلالية الصورية الخاصة به ، غير أن هذه البنية الاستهلالية لم تنغلق على نفسها، وإنما أخذت كل صورة في الاستهلال تنفتح بدورها على صور أخرى ضمن المنظومة الكلية للنص ، إذ تميز استهلال القصيدة هنا بالجمالية التصويرية، بفعل قدرة الشاعر على توليد الصور بعضها من بعض،

وتراكمها واحدة فوق الأخرى , مما أدى به إلى اتساع مساحات التأويل، ذلك أن السياب أجاد في ((استعمال المجاز استعمالا شعريا فيراكم الصور واحدة فوق الأخرى ، مولدا مجازا من مجاز آخر ، وهكذا يدفع بالقارئ إلى التأمل في أي المجازات تكمن فكرة الاستهلال الأساسية)) [١٩] .

إن السياب في مقدمة قصيدته هذه , ليس معنيا بالجمال الحسي ، أو تصوير الملامح المادية لهاتين العينين ، بل ((هنا يرتفع الوضع المادي ليصبح رمزا لحالة روحية ، إن البحث عن الجمال الذي يبدأ بالحسيات يخطو إلى شئ آخر يغني تلك الحسيات ويمنحها خاصية جديدة ... فالمحبوبة هنا ليست مجرد الذات الظاهرة المتجسدة أمامه وحسب ، ولكنها تجسيد لمعنى أسمى , تجسيد للكمال الروحي ، ومن هنا امتزج شعر الحب بشعر الطبيعة ، فكلاهما رمز لعالم علوي يتحقق فيه مدلول الجمال والكمال ، والسعي إلى الجمال والكمال خير في ذاته ، لأن الطبيعة خيرة في الأصل))[٢٠] .

ولكن هذا الارتباط بين عالمين : (المرأة والطبيعة) , يتجاوز ماهو حسي عند السياب ، إلى بعد رمزي عميق , فالمرأة - وعبر عينيها - تتحول هنا إلى رمز للأرض أو الوطن ، بدلالة الوعي أو اللاوعي . ذلك، ((أن الشاعر لا يختار رموزه اختيارا واعيا . ولا يمكن أن تكون صورة ما رمزا لأية فكرة كانت أو لأية مجموعة من الأفكار . فالصورة الرمزية ترتبط بمدلولاتها ارتباطا حتميا. ولا يمكن للرمز أن يكون ذاتيا أو شخصيا . لكنه – في أساسه - جماعي وإنساني ، بمعنى أنه يحمل الدلالة نفسها لكل إنسان . ولعل استخدام رمز المرأة للدلالة على الأرض والوطن من أفضل الأمثلة على ذلك . فقد أحس الإنسان منذ عصور بعيدة أن هناك ارتباطا حقيقيا بين المرأة والأرض)) [٢١] .

إذن ، تتكئ مقدمة القصيدة كلها – تقريبا - على مجموعة من الصور الحسية - البصرية ، وقد أضفت الأفعال:(ينأى، وترقص، ويرج، وتنبض، وارتعش،...) استمرارية ودلالة حركية على المشهد الاستهلالي ، وأبعدته عن الجمود ، وبهذا الأسلوب من التصوير يكتمل لنا بعدا المكان والزمان لهذه المقدمة الاستهلالية ،التي لا يجد السياب فيها شيئا أروع من جمال الطبيعة وبيئتها ، لكي يصف بها هاتين

العينين، فهو بواسطة صور الطبيعة أسبغ على هاتين العينين كل مظاهر الجمال والنقاء والبراءة . وكل ذلك حققته له نفسه الشعرية الشفافة .

٢- الرمز :

يعد الرمزمن الوسائل المهمة في تشكيل الصورة الشعرية ، لأنه يتسم بالطابع الإيحائي الذي يقود إلى التأمل , ويفتح منافذ الرؤيا على آفاق رحبة. فالرمز،((هو ما يتيح لنا أن نتأمل شيئا وراء النص ... هو قبل كل شئ معنى خفي وإيحاء))[٢٢] .

والرمز، هو التعبير التمثيلي , الذي تستخدم فيه ألفاظ ذات طبيعة حسية للدلالة على أفكار مجردة ، فيوحد بين الصورة والفكرة التي تثيرها تلك الصورة . فالرمز، هو نفسه ، وهو ما يعبر عنه : الاثنان منصهران . ولا يمكن لأية صورة أن تكون رمزا لأية فكرة بشكل عشوائي[٢٣].

ولذلك ، للشعراء رموزهم الخاصة ، وكثيرا ما ارتبط خلق الرمز عندهم بعناصر طبيعية كالبلبل ، والغراب ، والبوم ، والسمكة ، والأفعوان ، والأفعى، والخريف ، الربيع ،والشتاء ، والصيف ، والمطر، والريح ، والبحر ... وسواها من صور الطبيعة : الجامدة أو المتحركة . ولعل مثل هذا الارتباط ينبع من النظرة الحلمية التي تفترق عن الواقع المحيط بهم . وفي هذا تقرب من الفطرة التي يندمج في نسيجها الوجدان . ومعنى ذلك أن الاندماج بالطبيعة ، يعني أنها رموز تشير إلى عالم أعمق يمكن تقريه عن طريق الذات لكشف الترابط الغامض بين المادة والروح. إن اتخاذهم لعناصر الطبيعة رموزا، يجيء معطى من معطيات الوجدان . ومن خلال هذا المعطى يرتفع الشاعر عن الإشارة بوصفها جزءا من عالم الوجود المادي، إلى مستوى الرمز الذي يوحي ، ويتحرك , على وفق الرؤيا الشعرية [٢٤] .

ونطالع في ((أنشودة المطر)) أن السياب قد لجأ إلى لفظة ((المطر))، فأخذ يرددها كثيرا في قصيدته- وهي من ألفاظ الطبيعة المحسوسة الدالة على الحركة - فجعل منها صورة محورية في القصيدة ، ورمزا شائعا، يدل على الخصب والجدب معا ، ويشير من خلالها إلى واقع عراقي رأى ما رأى من محن ومجاعة . كما هو الحال في هذا المقطع من القصيدة :

أكاد أسمع النخيل يشرب المطر
وأسمع القرى تئن ، والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع ،
عواصف الخليج ، والرعود ، منشدين :
((مطر...
مطر...
مطر...
وفي العراق جوع
وينثر الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشوان والحجر
رحى تدور في الحقول ... حولها بشر
مطر ...
مطر ...
مطر ...
وكم ذرفنا ليلة الرحيل ، من دموع
ثم اعتللنا – خوف أن نلام – بالمطر ...
مطر ...
مطر ...

الطبيعة، وسيلة من وسائل البث الشعري ، لأنها ذات نبض خاص , وحركة حية، لذلك، هي تستوعب أحاسيس الشاعر وأفكاره بسهولة ويسر، واختيار السياب لظاهرة طبيعية مثل (المطر) في قصيدته هذه - ذات البعد الإنساني الفردي والعام التي تجاوز فيها ماهو حسي إلى الرمز - جعله يستعين بالأساطير القديمة لدى الشعوب وطقوسها في طلب الاستسقاء بالمطر، ((ويبدو أن أدعية المطر، وطقوسه، وترانيمه، بالإضافة إلى أهميته في الحياة وما يحمله من قوة الخلق والخصوبة جعلت السياب يتعامل معه تعاملا رمزيا، يرتفع في هذا التعامل من كونه أحد عناصر

الطبيعة إلى كونه لفظة سحرية دالة , تعطي دفقها الشعري في القصيدة وتجعلها ذات دلالات جديدة))[٢٥] . السياب - هنا - استغل كل ما في لفظة (المطر) من طاقة دلالية معبرة ، واستنفرها خدمة لموضوعه الشعري، ((والواقع أن كلمة مطر، وهي الصورة المحورية في القصيدة، ليست كلمة عادية ، لكنها رمز للحياة . فالمطر يعطي الحياة للأرض التي توفر الطعام للإنسان. والشاعر يكرر كلمة ((مطر)) في القصيدة كما يردد الإنسان البدائي شعائر الاستسقاء أي التضرع إلى الآلهة لإسقاط المطر ، ليسقي الأرض والناس)) [٢٦] .

إن المطر ، بما يمثله من معاني الحياة والخصب والنماء والفرح والأمل ... تتحول صورته - هنا - لدى السياب إلى رمز للحرية والانعتاق والخلاص ، من المستعمر ، أو الحكام العملاء والإقطاعيين , الذين يسرقون قوت الشعب , وقد أشار الشاعر إليهم بصورة:(الغربان والجراد)، رمزين للاستغلال والنهب.((والطائران هنا ، الغراب والجراد ، ليس لهما من وظيفة ، أو أهمية محددة في النظام الوصفي لعقائد الخصب ، إلا أنهما جزء متمم في النظام الرمزي في الكتب المقدسة . وذكر الجراد رمزا للشهوة الخالصة والدمار العشوائي ، أمر معروف ، يرد في التوراة، كما يرد في القرآن . من ناحية أخرى ، فالجراد يكشف عن نفسه بصورة طبيعية في هذه القدرة الرمزية)) [٢٧] .

هذا الاستدعاء المتكرر لصورة المطر - بدلالته الحسية المباشرة - الذي تتكئ عليه معظم نصوص القصيدة ، هو في حقيقته استدعاء متكرر وغير مباشر لصورة الخصب ، التي قد تحيل بدورها إلى معان أخر، إذ((يمثل المطر عند السياب الوجه الآخر للموت ، لذلك نرى عشق السياب للمطر عشقا مبهما غامضا كما هو عشقه للموت ، إذ أن السياب يجد في الموت شيئا من ملاذ ، إنه ليس غولا ، ولا ملاكا قبيحا ، بل هو بوابة غامضة ، يسعى لها الشاعر بكل هزاله وشحوبه وأمراضه . إن الموت يصبح جزءا من ظاهرة طبيعة كالمطر ، وكالرياح العاصفة ، وكالنخيل، إنه تلك اليد التي اختطفت أمه ذات مساء ، والتي ستختطف الشاعر بعد ذلك بأعوام , حيث يصبح كل شئ عدما متوافقا مع كل ما يحمله الشاعر من إحساس متراوح الخطى بين التشبث بالحياة من جهة ، والتشبث بالموت من جهة أخرى)) [٢٨] .

ويختار السياب للمطر صورة قاتمة أخرى، ترتبط بصورة الموت أيضا، فالمطر، قد يحمل في قطراته الحزن . كما في هذا المقطع من القصيدة :

أتعلمين أي حزن يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع ؟

بلا انتهاء – كالدم المراق , كالجياع ,

كالحب ، كالأطفال , كالموتى – هو المطر !

يتجاوز السياب - هنا - في استدعائه لصورة المطر، المتعارف عليه من دلالاته ، ويحمله دلالات أخرى بفعل رؤيا الشاعر، التي تلقي بإسقاطاتها النفسية على هذه الظاهرة الطبيعية ، فتتحول تلك الظاهرة الطبيعية العادية مثل المطر إلى مجموعة من المتناقضات ، هي في الأصل حياة الشاعر الخاصة المضطربة , أو واقعه الإجتماعي المتناقض أيضا ، فهناك : الحزن ، والوحدة ، والضياع ، والدم، والجوع ، والحب، والأطفال، والموت. كلهم حاضرون أو يحضرون مع مجيء المطر !

وهذا الجمع بين المتناقضات في القصيدة , منحها زخما فنيا واضحا , وأضفى عليها جمالية تصويرية رائعة ، وأسهم في إخراج القصيدة من بعدها الذاتي الخاص إلى بعدها الموضوعي والإنساني العام ، فما قصده السياب من الجمع بين النقيضين: الموت والحياة - من خلال رمز المطر - هو جعل المأساة تبدو أكثر هولاً ، وأعمق دلالة , ومن ثم يكون المطر مسؤولاً عن الحياة التي ينتظرها الجياع في كل مكان ، حيث تخرج التجربة من واقعها المحلي لتعانق واقعاً إنسانياً أشمل ، ولتعبر عن تطلعات المضطهدين والمهاجرين والجياع والعراة - على امتداد الساحة الإنسانية - إلى تحقيق حياتهم الفاضلة التي تشعرهم بإنسانيتهم [٢٩] ، وانصهار التجربة (الذاتية) بالتجربة (الإنسانية) مسألة هامة يؤكد عليها نقاد الأدب، بل يطالبون الشعراء بها ، ((فمن خلال انصهار (الأنا) ب (النحن) واتحاد ((الذات)) ب ((الموضوع)) لا تعبر التجربة عن واقعها (المحلي) فحسب ، بل تعبر عن واقع (إنساني عام) لأن

الأدب لا يصبح (عالميا) إلا إذا كان مخضبا بسمات (الواقع الخاص) الذي يعبر عنه))[٣٠] .

ومما سبق , نستطيع القول إن الرمز عند السياب رمز متحرك في القصيدة، وهو في أي تحرك له في أي اتجاه يحقق غرضه ، وهكذا حملت قصيدة : " أنشودة المطر " بعداً إنسانياً عاماً من خلال بعد إنساني خاص ، ولم تكن متقوقعة على ذات الشاعر وحسب ، ولذلك وقف النقاد عندها كثيرا ، وتأملوا بعمق صياغتها الفنية .

٢- الأسطورة :

استغل الشاعر الحديث ما في الأسطورة من دلالات متنوعة ، فردية أو جمعية، وعكسها في شعره على أفكاره ومشاعره ، يقول الناقد " هاينز ميرهوف " في كتابه : ((الزمن في الأدب)) ، أن ((عودة الشاعر إلى الينابيع الأسطورية، ليست حلية جمالية تضاف إلى العمل الشعري ، بقدر ما هي عامل أساسي يساعد الإنسان على اكتشاف ذاته وتعميق تجربته، ومنحها بعدا شموليا وضرورة موضوعية تستطيع النهوض - بما تمتلك من طاقات متجددة - بعبء الهواجس والرؤى والأفكار المعاصرة، وبهذا الفهم للأسطورة ورموزها، فأن الأشخاص الأسطوريين سيفقدون داخل النتاج الأدبي شيئا من هويتهم الذاتية ... ويتوحدون مع الجنس البشري عموما))[٣١] . وبمعنى آخر فإن الأسطورة في الشعر ، ينبغي أن تنقل التجربة الشعرية ، من مستواها الشخصي الذاتي إلى مستوى إنساني جوهري , وهذا هو أهم أوجه اللقاء بين الشاعر أو الأديب عموما وعالم الأساطير ، وهو لقاء موضوعي [٣٢] .

وحينما نطالع شعر السياب ، نجد أنه يوظف الأساطير القديمة في قصائده، مستغلا ما فيها من دلالات فكرية عميقة، وقد أشار النقاد إلى ذلك الاستخدام المتكرر لبعض الأساطير في شعر السياب . ومنها أسطورة : الحياة والموت ، أو الخصب والجدب ، وحضور ظواهر الطبيعة مثل الماء أو المطر في طقوس تلك الأساطير . يقول الدكتور عبد الرضا علي : ((في شعر السياب تيمات أسطورية متكررة ، أفاد السياب من إيماءتها الخيالية صورا ذات دلالات عصرية، جعل منها نسيجا أسطوريا

لكثير من قصائده. وقد ظهرت هذه التيمات في جانبين متقاربين وإن اختلفا في الظاهر، احدهما فكرة اليباب والخصب ، وثانيهما ، فكرة الموت والميلاد . ولما كان هذان الجانبان يشكلان بعدا كبيرا في وجدان المتلقي وإحساسه ، فقد رأى فيهما السياب بغيته ووسيلته في الوصول إلى أعماق النفس الإنسانية ، وذلك بجعلهما يتخطيان حدود الأشياء بما يمنحانه من طاقة حركية في استلهام الموروث وتوظيفه لتغيير الواقع القسري المفروض))[٣٣] .

يقول السياب :

وفي العراق ألف أفعى تشرب الرحيق
من زهرة يربها الفرات بالندى
وأسمع الصدى
يرن في الخليج :
((مطر...
مطر...
مطر..
في كل قطرة من المطر
حمراء أو صفراء من أجنة الزهر .
وكل دمعة من الجياع والعراة
وكل قطرة تراق من دم العبيد
فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد
أو حلمة توردت على فم الوليد
في عالم الغد الفتي، واهب الحياة .))
ويهطل المطر..

هنا، تم توظيف الأسطورة في القصيدة بشكل مكثف جدا ، فترد في عبارة صغيرة ، ولكنها عميقة الدلالة ، بعيدة الجذور :

وفي العراق ألف أفعى تشرب الرحيق

من زهرة يربيها الفرات بالندى

وفي هذه الصورة إشارة إلى قوى التسلط والإقطاع التي كانت تنهب كل ما تجود به أرض العراق من خصب وورد ، دون أن تترك للكادحين الذين أسهموا في صنع الحياة ونمائها شيئا, ولكن لماذا عمد السياب إلى وصف سارقي الحياة بالأفعى؟ ولماذا جعل نتاج الفلاحين زهرة ذات رحيق ؟ ومن أين تأتى له هذا المعنى , وهذا الربط بين الأفعى ورحيق الزهور؟

إن السياب - هنا - استلهم المعنى الأسطوري من التاريخ الأدبي القديم في أرض وادي الرافدين من ملحمة جلجامش, وجعله شيئا أساسيا في بنية القصيدة، ولابد أن القارئ سيعرف بعد أن يتأمل كلمات الأسطورة أن الأفاعي التي تنهب ورد فلاحي العراق إنما تسلبهم حياتهم وكدهم تماما كما سلبت أفعى جلجامش ورد حياته، وأتعابه وبحثه، وأن توظيف السياب لمغزى الحكاية الأسطورية، قد جاء بشكل عفوي، فغدت هي المعنى ، وهي الدلالة الموضوعية الكبيرة التي يريد السياب إبرازها ، وسحبها من الماضي السحيق لتلامس الحاضر والواقع [٣٤] .

إذن ، ثمة تكنيك فني في القصيدة نجح السياب في توظيفه ، إذ استعان بالمعنى الأسطوري الشهير لتعزيز المشهد الصوري العام ، الذي بلا ريب خدم مضمون القصيدة وحافظ على وحدتها الموضوعية ، وتم له كل ذلك عبر اشتغاله على صور من الطبيعة ، رسم مشاهدها بدقة ، يقول الناقد محمد الجزائري : ((وفي الطبيعة، اشتغل الشاعر بدر شاكر السياب، أيضا على رسم المشهد، ولكنه طور آليته في تأويل الرمز الأسطوري وتحويره ، ومن ثم خلقه من تراث تجربته ، هو .. فالمزاوجة والتأويل والتحوير، ليست لعبة شكل، ولا هوى شكلانياً ، بل منح موضوع الطبيعة بعدا في اتساع رؤية ، ومخيلة مضافة ، وتحرير المنجز الإبداعي السابق من قيوده ودفعه إلى دلالات شمولية عبر حركيته وجوهره الخلاق)) [٣٥] .

السياب ، وهو يضفي على قصيدته ذلك التفاؤل الكبير بالمستقبل ، للخلاص من الواقع المزري ، لا يجد أفضل من صورة المطر للتعبير عن هذه الفكرة ، فالمطر: حياة وميلاد ، وتغيير ، وأمل وشبع .. لكل جائع وفقير، إنه الثورة والحرية

والخلاص لشعب مكبل بقيود الاستعمار والحكام العملاء والإقطاعيين . هنا يتواشج المعنى الأسطوري القديم للمطر مع المعنى الرمزي الحديث في صورة معبرة عن الواقع والمستقبل ، تحاول رؤيا الشاعر أن تغيره ولو بالكلمات . فكانت تلك اللقطة الأخيرة المعبرة : **(ويهطل المطر...)** التي أراد لها الشاعر أن تكون - فضلا عن رمزيتها - مفتوحة على كل الدلالات ، ومنها أن ثمة حراكا ثوريا وإرادة شعبية آتية ستهز عروش الحكام وأذنابهم لا محالة ، وأن نتفاءل بمستقبل أفضل .

٣ـ التكرار:

التكرار في النص الشعري ، حاجة يقتضيها التعبير ، وهو بهذا المعنى ذو دلالة فكرية ونفسية معا . ويرتبط التكرار - عموما - بمعاني الشعر وانفعالات الشاعر ، إذ يعبر الشاعر المبدع من خلاله عن إلحاح جهة مهمة في الكلمة / أو العبارة ، يعنى بها أكثر من عنايته بسواها ، كما يسلط الضوء على نقطة حساسة في الكلمة / أو العبارة ويكشف عن اهتمامه بها ، ويقيم بواسطتها أساسا عاطفيا من نوع ما، وهكذا يضع التكرار بين أيدينا مفتاحا للفكرة المتسلطة على الشاعر لاتصاله الوثيق بالوجدان ، وهو بذلك أحد الأضواء التي يسلطها الشعر على أعماق الشاعر، فيضيؤها بحيث نطلع عليها [٣٦] .

لقد تكررت لفظة (المطر) في نص السياب (٣٥) مرة ، ولهذا التكرار دلالاته التي يستطيع أن يستنبطها المتلقي عند القراءة الواعية المتأملة للنص، وحتى نشعر بدلالة التكرار ووظيفته في النص، فهو حاجة نفسية تصاحب حالة الشاعر المغتربة، وليس حاجة فنية فرضتها بنية القصيدة فحسب ، نقرأ هذا المقطع من القصيدة معاً :

ومنذ أن كنا صغارا ، كانت السماء
تغيم في الشتاء
ويهطل المطر ،
وكل عام – حين يعشب الثرى – نجوع
ما مر عام والعراق ليس فيه جوع .
مطر...

مطر...

مطر...

في كل قطرة من المطر

حمراء أو صفراء من أجنة الزهر .

وكل دمعة من الجياع والعراة

وكل قطرة تراق من دم العبيد

فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد

أو حلمة توردت على فم الوليد

في عالم الغد الفتي ، واهب الحياة !

مطر...

مطر...

مطر...

سيعشب العراق بالمطر ...))

إن أي نص شعري يمكن أن ينفتح على دلالات عديدة بالقراءة المعمقة، فتضفي عليه هذه القراءة جمالية أخرى، فبالرغم من نظرة التفاؤل التي تبدو في صورة : الأمل بغد أفضل إلا أنه تفاؤل حذر, صحيح أن جو القصيدة ((هو تشبث عارم بالحياة ، لكنه تشبث لا يتجاوز الموت أو يتناساه. والسياب ينجر وراء الصورة التراجيدية للمطر، لكنه بالمقابل يضفي عليها رؤية اجتماعية وسياسية أيضا، فالمطر هو الكائن الذي يحل كل عام فتعشب البراري والحقول ، لكن هذا الاعشوشاب لا يولد إلا حالة من الجوع ، فكلما اعشوشبت الأرض، جاع الإنسان، إنه تناقض منطقي ومعقول ومعاش في مرحلة من المراحل التي عاشها الشاعر))[٣٧] .

ونرى أن تعدد الدلالات التي تعطيها مفردة المطر وتغيرها في آن معاً - وهي تتكرر في بنية القصيدة في كل مرة - فهناك : الطفولة والبراءة ، والجوع والشبع، والثورة والأمل ، والحرية والخلاص ، والحياة والخصب ... وكل هذه الدلالات المتحركة مجتمعة أبعدت النص عن الرتابة والملل عند تلقيه ، وأضفت عليه جمالية

في : تشكيله ومضمونه وإيقاعه ، مما يعني خصوبة النص ، وبراعة الشاعر في انتقاء اللفظة المناسبة .

وقد تتحول عين الشاعر ومخيلته ، إلى ما يشبه (كاميرا سينمائية)، تتابع الحدث ، وتلتقط أدق تفاصيله ، بعين مصور محترف . لاحظ هذه الصورة التي تشبه لقطة سينمائية مختارة بعناية فائقة ، وهي لقطة تجمع بين الصوت والبصر والحركة، وتحتاج إلى التأمل العميق .

أصيح بالخليج : ((يا خليج ..
يا واهب اللؤلؤ , والمحار , والردى !))
فيرجع الصدى
كأنه النشيج :
((يا خليج
يا واهب المحار والردى .))
وينثر الخليج من هبانه الكثار ،
على الرمال : رغوة الأجاج , والمحار ،
وما تبقى من عظام بائس غريق
من المهاجرين ظل يشرب الردى
من لجة الخليج والقرار .

يبدأ هذا المقطع من القصيدة ، بهذا النداء الحزين ، الذي أطلقه الشاعر للخليج البحر ، وكأنه يستعطفه الإصغاء أولاً والكرم ثانياً ، يقول : (أصيح بالخليج :**((** يا خليج .. يا واهب اللؤلؤ ، والمحار ، والردى ! **))** فيرجع الصدى ، كأنه النشيج: **((** يا خليج يا واهب المحار والردى . **))**) .

نلحظ هنا أن هذا المقطع يشتمل على أسلوب التكرار، الذي يؤدي وظيفة دلالية مهمة ، فيها إضاءة جمالية للنص ، حيث يتحقق هذا التكرار عن طريق حذف بعض الألفاظ منه . فالصيحة ،هنا عبارة عن صرخة احتجاج على ما يمنحه الخليج من ثراء(اللؤلؤ)، مقارن بحال مدقع لشاعر مغترب لا يملك من حطام الدنيا شيئا . ولكي يقيم نقطة التلاشي ، فإن حذف لفظ (اللؤلؤ) ، من تردد الصدى , للدلالة على

عدم امتلاك أسباب العيش، ولتصعيد أسباب الموت المفضي إلى التلاشي والاضمحلال ، غير ناس ما للفظة (الصدى) ، من أثر في إشاعة هذه الدلالة [٣٨] .

لكن أي صدى - كأنه النشيج - يرجع كلمات الشاعر التي يصيح بها ؟ هل هو الصدى المعروف في صخور الجبال والأماكن المغلقة ، أم صدى الخليج - البحر الفضاء المفتوح ولا صدى هنا ؟ وإن كانت الصورة شعرية خيالية ، إلا أننا نرى أن هذا الصدى هو نفس الشاعر المحبطة التي أرادت أن تقدم صورة مأساوية لحالها ولحال كثير من المهاجرين المتفائلين بالغنى والرفاهية ولكن : الخليج لا ينثر على سواحله غير المحار والموت !! إنها صورة قاتمة تلتقطها عين الشاعر وإحساساته معا.

في الجزء الأخير من المقطع ، يطالعنا الشاعر بصورة للبحر ، وهو يقذف إلى سواحله المحار وعظام الغرقى البالية من المهاجرين الذين تعرضوا للهلاك والموت في مياهه ، وهي صورة عادية مألوفة للعين ، غير أن الشاعر ضمنها واقعا نفسيا عاشه هو، إذا ما علمنا أن الشاعر لم يحصل من وراء غربته على شيء، ومن ثم نستطيع أن نفهم سبب هذا الحزن الذي يغلف جو القصيدة ، صحيح أن القصيدة تمثل معاناة الشاعر وغربته , لكنها - أيضا- تمثل حال كل مهاجر غريب عن وطنه !

٤ـ التلميح :

لجأ السياب إلى أسلوب (التلميح) ، وهو الإشارة إلى حدث أو قصة مشهورة من دون أن يتم التعريف بهذا الحدث ، أو تلك القصة داخل متن النص أو في هامش الصفحة ، إنما يدع الشاعر للمتلقي حرية استحضار ذلك الحدث أو تلك القصة [٣٩]، بالاعتماد على الخلفية الثقافية لهذا المتلقي ، وحضوره الواعي . وهذا ما نجده عندما نقرأ المقطع الآتي من (أنشودة المطر) :

((أكاد أسمع العراق يذخر الرعود
ويخزن البروق في السهول والجبال
حتى إذا ما فض عنها ختمها الرجال

لم تترك الرياح من ثمود

في الواد من أثر.....)) .

لقد أشار الشاعر إلى المدن التي دمرها الله تعالى كما ذكر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى:((وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم. وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين)) [٤٠] .

النص القرآني الكريم السابق يشير صراحة إلى أن قوم عاد هم من أُهلك بالريح ، وليس قوم ثمود الذين أُهلكوا بالصاعقة أو الصيحة الشديدة (الطاغية)، كما في قوله تعالى: ((فأما ثمود فأُهلكوا بالطاغية , وأما عاد فأُهلكوا بريح صرصر عاتية , سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية ، فهل ترى لهم من باقية))[٤١]. هنا وقع الشاعر في خطأ تاريخي ، حينما أشار إلى أن قوم ثمود هم من أُهلكوا بالريح !!

على الرغم من البعد السياسي - الثوري لهذا المقطع من القصيدة ، إلاّ أنه يحتاج إلى وقفة تأمل من قبل المتلقي , حيث أن استحضار هذه الواقعة بالذات يرتبط بما يحصل في العراق آنذاك من انتفاضات وطنية وثورات شعبية مستمرة ضد المستعمر أو الحكام العملاء ! وإشارة الشاعر إلى هذه الواقعة بالذات والتلميح إلى هذا الحدث في ذلك الزمن الغابر، واستحضاره للنص القرآني في القصيدة بهذه الدلالة ، سيومئ للمتلقي بالعاقبة الوخيمة التي ستحل بالحكّام العملاء وأعوانهم، حتماً، إن استمر الوضع كما هو عليه آنذاك [٤٢] .

هنا يكون حضور صور الطبيعة المتحركة والجامدة ، حضورا حسيا- بصريا بألفاظ دالة هي: (الرعود ، والبروق ، والجبال ، والرياح) ، والربط بين حضور صور الطبيعة - وما تمثله من معاني القوة والسرعة والتدمير- واستحضار الحادثة في ذهن المتلقي ، سوف يكثف الدلالة الإيحائية للنص الشعري ، ويعطيه قيمة فنية عالية ولاسيما إذا ارتبطت هذه الدلالات بأبعاد سياسية – ثورية .

نتائج البحث :

١) حضور صور الطبيعة في شعر السياب، ليس حضورا سطحيا، أو عرضيا، وإنما هو جزء لا يتجزأ من تشكيل القصيدة وبنائها الفني .

٢) تتنوع صور الطبيعة في قصيدة أنشودة المطر مابين صور متحركة وأخرى جامدة ، يغلب عليها الطابع الحسي - البصري ، لوضوحه وقوة الاستدلال به في إيصال المعنى .

٣) يتشكل البناء الصوري في قصيدة (أنشودة المطر) من مشهدين كبيرين، وثمة مشاهد صغيرة أو لقطات تعزز وحدة البناء داخل النص ، وتحافظ على وحدتها الموضوعية .

٤) صور الطبيعة عند السياب مثقلة بالرموز دائما ، وتختبئ خلفها عواطفه الذاتية وأحلامه الخاصة،التي تذوب في الموضوعي والعام من المعاناة الإنسانية .

٥) رؤى السياب أمام مظاهر الطبيعة متفاوتة، فحينا يرى فيها حزنا وكآبة وضياعا، وحينا آخر يجد فيها حبا وأملا وفرحا .

٦) يستعين السياب بالأساطير ذات الدلالات المعمقة ، لتدعيم أفكاره داخل النص، وتخلق هذه الاستعانة مع صور الطبيعة الحسية تناغما فنيا ملحوظا في بنية القصيدة ، حرص الشاعر عليه أشد الحرص .

الهوامش :

(١) ينظر : معجم المصطلحات الأدبية : ٢٢٥.

(٢)الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب :٤٠٠.

(٣)الصورة الشعرية : ١٦٠.

(٤) تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج :١٠٦.

(٥)الأسس الجمالية في النقد العربي : ٣٨٨.

(٦) رماد الشعر :٦٤.

(٧) نفسه : ٦٥.

(٨) ديوان بدر شاكر السياب :٤٧٤-٤٨١.

(٩) ينظر : أعلام الشعر العربي الحديث , السياب :٣٣.

(١٠) ينظر : حركات التجديد في الأدب العربي :٢٠٤ وما بعدها .

(١١) ينظر : المصدر السابق : ٢١.

(١٢) بدر شاكر السياب ، دراسة في حياته وشعره : ٢١٢.

(١٣) قراءة في قصيدة أنشودة المطر : ١٢٥ .

(١٤) أعلام الشعر العربي الحديث ، السياب : ٣٤ .

(١٥) دير الملاك : ٢٦١ .

(١٦)الاستهلال ، فن البدايات في النص الأدبي : ٨ .

(١٧) نفسه : ١٤ وما بعدها .

(١٨) نفسه : ٢٦ .

(١٩) نفسه : ٢٠٥ .

(١٩) تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج : ٨٠ .

(٢٠) أعلام الشعر العربي الحديث ، السياب : ٣٤ .

(٢١) زمن الشعر : ١٦٠ .

(٢٢) ينظر : أعلام الشعر العربي الحديث ، خليل حاوي : ١٥ .

(٢٣) ينظر : رماد الشعر : ٢٤٩ .

(٢٤) المطر والميلاد والموت في شعر السياب : ٥ وما بعدها .

(٢٥)أعلام الشعر العربي الحديث , السياب : ٣٥ .

(٢٦) قراءة جديدة لأنشودة المطر : ١٦ .

(٢٧) قراءة في قصيدة أنشودة المطر : ١٢٤ .

(٢٨) ينظر : المطر والميلاد والموت في شعر السياب : ٨ .

(٢٩) التذوق الفني للأدب : ٢٢ .

(٣٠) ينظر : الزمن في الأدب : ٩١ .

(٣١) ينظر : حياتي في الشعر : ١٠٠ ، ودير الملاك : ١٢٢.

(٣٢)المطر والميلاد والموت في شعر السياب : ٥ .

(٣٣) ينظر : المصدر السابق : ١٣٢ .

(٣٤) خطاب الإبداع : ١١٤.

(٣٥) ينظر : قضايا الشعر المعاصر : ٢٤٢ .

(٣٦) قراءة في قصيدة أنشودة المطر : ١٢٥ .

(٣٧) ينظر :رماد الشعر : ٢٢١ .

(٣٨)ينظر : التناص في شعر الرواد :٩٤ .

(٣٩) سورة الذاريات : ٤١- ٤٥ .

(٤٠) سورة الحاقة : ٥-٨ .

(٤١) ينظر : المصدر السابق : ٩٥ .

المصادر:

أولا- الكتب :

١ـ أعلام الشعر العربي الحديث، بدر شاكر السياب، ريتا عوض، منشورات وتوزيع المكتبة العالمية ، بغداد ، ط٣ ، ١٩٨٧م .

٢ـ أعلام الشعر العربي الحديث ، خليل حاوي ، ريتا عوض ، مطبعة أوفسيت الانتصار ، بغداد، ط٢ ،١٩٨٤م .

٣ـ الاستهلال ، فن البدايات في النص الأدبي، ياسين النصير ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ، ١٩٩٣م .

٤ـ بدر شكر السياب، دراسة في حياته وشعره ، د. إحسان عباس ،دار الثقافة، بيروت ، ١٩٦٩م .

٥ـ تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج العربي ، د. ماهر حسن فهمي، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨١م .

٦ـ التناص في شعر الرواد ، أحمد ناهم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ , ٢٠٠٤م.

٧ـ حركات التجديد في الأدب العربي ، د. جابر عصفور وآخرون ، دار الثقافة، القاهرة ، ١٩٧٩م .

٨ـ خطاب الإبداع ، الجوهر- المتحرك – الجمالي (دراسة جمالية)، محمد الجزائري ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١، ١٩٩٣م .

٩ـ خليل حاوي ، ريتا عوض ، مطبعة أوفيست الانتصار، بغداد ، ط٢ ، ١٩٨٤م .

١٠ـ حياتي في الشعر ، صلاح عبد الصبور ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٦٩م .

١١ـ دير الملاك ، دراسة نقدية في الشعر العراقي المعاصر ، د. محسن أطيمش، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ,١٩٨٢م .

١٢ـ ديوان بدر شاكر السياب ، دار العودة , بيروت , ١٩٧١م .

١٣ـ رماد الشعر ، دراسة موضوعية وفنية للشعر الوجداني الحديث في العراق، د . عبد الكريم راضي جعفر ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ١٩٩٨م .

١٤ـ زمن الشعر ، أدونيس ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٨م .

١٥ـ الزمن في الأدب ، هاينز ميرهوف ، ترجمة : أسعد رزوق ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧٢م

١٦ـ الصورة الشعرية ، س , د ، لويس ، ترجمة : أحمد نصيف الجنابي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٤م .

١٧ـ قراءة جديدة لأنشودة المطر ، تيري دي يانغ , ترجمة : سحر أحمد ، شركة الغدير للنشر، البصرة ، ط١، ٢٠١١م .

١٨ـ قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، دار العلوم للملايين ، بيروت ، ط٦ ,١٩٨١م .

١٩ـ معجم المصطلحات الأدبية ، إبراهيم فتحي ، المؤسسة العربية للناشرين، تونس ، ١٩٨٦م .

ثانيا- الدوريات :

١ـ الصورة الفنية ، نورمان فريدمان ، ترجمة : د. جابر عصفور، مجلة الأديب المعاصر العراقية ،ع١٦ ، آذار ، ١٩٧٦م .

٢ـ المطر والميلاد والموت في شعر السياب،عبد الرضا علي ، مجلة الأقلام العراقية ، بغداد ، ع٣ ، كانون ١، ١٩٧٧م .

٣ـ قراءة في قصيدة أنشودة المطر ، خليل الأسدي ، مجلة الطليعة الأدبية ، بغداد ، ع١٢، كانون ١، ١٩٧٩م .

٤ـ التذوق الفني للأدب ، د. طه وادي ، مجلة الآداب ، بيروت ، يوليو ، ١٩٧٤م .